إستقلال القضاء

عبر العصور الاسلامية

للدكتور شوكت عليان

نستطيع أن نستخلص من صفحات التاريخ ما كان عليه القضاء في الاسلام من الاجلال والاحترام · وما كان لقضاته من السطوة والسلطان · وما بلغوه من الحفاوة والمكانة لدى الخلفاء والولاة · فلقد روى لنا التاريخ الخالد ما كان للقضاة من منزلة سامية · ومكانة عظيمة في نفوس الناس عامة والخلفاء خاصة لما تنطوي عليه نفوسهم من العزة والكرامة · وماجبلت عليه طباعهم · من النزاهة والاستقامة · ومافطروا عليه من العفة وعلو الهمة · يتمثل ذلك في كرم الطباع · ومتانة الأخلاق · وعدل في الأحكام · وحرية في الرأي · وصلابة في الحق · وفصل في الخصومات · عدل منصف · ماح كل بهتان وجور · كتاب الله امامهم · وهدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ طريقهم يهتدون بهديهما · ويستيضيئون بنورهما · مايحقق العدالة والانصاف · بذكاء نادر وفطنة قوية · وقريحة وقادة · وقد عاهدوا أنفسهم على القضاء بالحق · والحكم بالعدل · والتسوية بين الخصوم · مهما كانت منزلتهم · وتباينت شخصياتهم · فبلغوا بذلك منزلة عظيمة في قلوب الناس · فهابهم الأمراء · وخضع لحكمهم الخلفاء (يحدثنا محمد بن نعيم عن أبيه · قال : شهدت أباهريرة يقضي · فجاء الحارث بن الحكم · فجلس على وسادته · التي يتكىء عليها · فظن أبو هريرة أنه لحاجة غير الحكم فجاءه رجل · فجلس بين يدي أبي هريرة · فقال له مالك : قال : استأدني على الحارث · فقال أبو هريرة · قم فاجلس مع خصمك · فانها سنة أبي القاسم ـ صلى الله عليه وسلم ـ) (١) : وقال محمد قال خالد ابن سعد : سمعت محمد بن الجباب يقول عمن حدثه · ان الأمير عبد الرحمن ابن معاوية · دخل عليه حبيب القرشي · فشكى اليه بالقاضي عبد الرحمن

ابن طريف · وذكر أنه يريد أن يسجل عليه في ضيعة قيم فيها عنده · وادعى على حبيب فيها الغضب · والعداء فأرسل الأمير رحمه الله في القاضي وتكلم معه في ذلك وأمره بالتثبت ونهاه عن العجلة · فخرج ابن طريف من من فوره وأرسل في الفقهاء والعدول فنفذ القضية على حبيب · وسجل وأشهد · فدخل حبيب على الأمير ووصفه بالبغضة له · والاستخفاف به · فغضب الأمير غضبا شديدا · وأرسل الى القاضي ابن طريف وأدخله على نفسه ثم قال له · من أقدمك أن تنفذ الحكم بعد أن أمرتك بالتثبت والأناة · فقال له ابن طريف : أقدمني الذي أقعدك هذا المقعد · ولولاه ما قعدته · فقال له الأمير · قولك هذا أعجب من فعلك · ومن أقعدني هذا المقعد ؟ فقال · رسول رب العالمين · فلولا قرابتك منه ماقعدت هذا المقعد · وانما بعث بالحق ليقضي على القريب والبعيد ثم قال له القاضي أيها الأمير · ما الذي يحملك على أن تتحامل لبعض رعيتك على بعض وأنت تجد من ذلك وجها أن ترضي به من تعني به من مالك · فقال له الأمير فلعل الذين استحقوا الضيعة أن يبيعوها فأشتريها لحبيب من مالي وأرضيهم في ثمنها فقال له ابن طريف · اذا أرسل في القوم وأخاطبهم في ذلك · فان أجابوا الى البيع · والا فأن حكمي قد نفذ فخرج القاضي فأرسل في القوم وتكلم معهم في الضيعة فأجابوا الى البيع أن أجزل لهم الثمن · فكان حبيب يقول بعد ذلك جزى الله عني ابن طريف خيرا · كانت بيدي ضيعة حرام فجعلها ابن طريف حلالا) (٢) ·

واذا بحثت عن علو مكانة القضاة · وعظم شأنهم وعدم اكتراثهم بشخصية من يحضر أمامهم · وجدتهم قوة في الايمان · وحبا في العدالة · وزهدا في الوظيفة التي لم يتولوها طمعا في الدنيا · ولا حرصا على جمع المال · وانما تولوها لانصاف المظلوم ممن ظلمه ونصرة الضعيف ممن اعتدى عليه · اجابة لدعوة الدين القيم · (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر (٣) وهذا مادعى كثير من الفقهاء ـ صحابة وتابعين ـ الى الاعراض عن الدخول فيه خشية أن يجرهم ذلك الى ارتكاب منكر · أو تقصير في واجب (٤) · اذ ولاية القضاء أعظم خطرا بعد الامام الذي جعله الله زماما للدين وقواما للدنيا · لما يتقلده القاضي من تنفيذ القضايا · وتخليد الأحكام في الدماء والفروج والأموال والأعراض · وما يتصل بذلك من ضروب المنافع ووجوه المضار · وكانت العقبى من الله في ذلك فظيعة المقام هائلة الموقف مخوفة المطلع · اختلفت في ذلك الهمم من عقلاء الناس وعلمائهم · فقبل كثير منهم القضاء رغبة في

شرف العاجلة · ورجاء لمعونة الله عليه واتكالا على سعة عفوه فيه · ونفر آخرون منه · رهبة من مكروه الآجلة · وحذار من الله فيما قد يكون منهم وعلى أيديهم · فممن نفر من الصحابة · عبد الله بن عمر (٥) (روى الترمذي في سننه · ان عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال لعبد الله بن عمر · اذهب فاقض بين الناس · قال أو تعافيني يا أمير المؤمنين · قال وما تكره من ذلك · وقد كان أبوك يقضي · قال · ان أبي كان يقضي فاذا أشكل عليه أمر سأل رسول الله · فاذا أشكل على رسول الله سأل جبريل · واني لا أجد من أسأله · وقد سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول (من عاذ بالله فقد عاذ · واني أعوذ بالله أن تجعلني قاضيا (٦) · وممن نفر من التابعين واتباعهم أبو حنيفة ومالك بن أنس وابن أبي ذئب · ـ رضي الله عنهم ـ فأما أبو حنيفة فاحتج بقوله (اني لمولى · ولا يصلح أن يلي القضاء مولى) وأما مالك فاحتج بأن قال « اني رجل محدود ولايصلح أن يلي القضاء محدود » وأما ابن أبي ذئب فقال (اني قرشي · ومن يشرك في النسب لا ينبغي أن يشرك في الحكم) · وهكذا احتج كل واحد منهم بما علم الله صدق نيته فيه فعافاهم معاوية بن صخر من محنة القضاء (٧) (وروى أن يزيد بن عمر بن هبيرة أراد أن يولي أبا حنيفة قضاء الكوفة فأبى فضربه مائة سوط مفرقة على أن يلي القضاء فأبى) (٨) ·

وحاول المنصور أن يوليه القضاء فاعتذر أبو حنيفة · فدعي مرة أخرى للقضاء فقال (حتى أستشير أصحابي فاستشار أبا يوسف فقال له · لو تقلدت القضاء لنفعت الناس · فنظر اليه ابو حنيفة نظرة المغضب وقال ·· ارايت ان اعبر البحر سباحة اكنت اقدر عليه فقال ابو يوسف البحر عميق والسفينة وثيق والملاح عالم · فقال الامام كأني بك قاضيا ـ وذكر البزازي في مناقبه أقوالا حاصلها أن الامام لم يقبل القضاء ومات على الاباء) (٩) ·

كذلك ممن نفر من القضاء أبو خزيمة بن ابراهيم بن يزيد الرعيني قاضي مصر سنة ١٤٤هـ في خلافة جعفر المنصور · والحارث بن مسكين في خلافة المتوكل (١٠) ·

وفي بلاد المغرب ـ في خلافة عبد الرحمن بن معاوية ـ ومحمد بن عبد الرحمن بن معاوية نفر منه بعض الناس (١١) ولما ولى الخلافة هشام

ابن عبد الرحمن رحمهما الله أرسل في مصعب بن عمران الى ضيعته فذكر أنه أتاه الرسول وزوجته تنسج في منسج لها والمصعب بين يدي المنسج يعمل لها الوشائع · ففتحت المرأة بأصابعها في المنسج ثم قالت له · ترد القضاء أيضا على هذا الأمير كما رددته على أبيه · ثم ترجع الى وشائع المنسج · فلما قدم المصعب على هشام قال له قد علمت أنه انما منعك من قبول القضاء من أبي الأخلاق التي كانت له · وقد عرفت أخلاقي · فتولى القضاء · فأبى عليه فعزم عليه هشام رحمه الله عزما شديدا حتى ولي القضاء) (١٢) وعبد الله بن وهب وسفيان الثوري والحارث بن مسكين رفضوا أن يتولوا القضاء (١٣) ·

ورغم أقوال العلماء في البعد عنه · ورغم مالقوه من العناء والمشقة · فانهم تقلدوا القضاء · وضربوا له أعلى الأمثال · وأرفعها في العدالة · ومما يحكيه لنا التاريخ في هذا (أن العباس بن عبد الله المرواني غصب ضيعة من رجل · بجبان · وتوفى الرجل وترك أطفالا فلما بلغوا وانتهى اليهم عدل مصعب بن عمران · قدموا قرطبة وأنهوا اليه مظلمتهم وأثبتوها عنده · فبعث القاضي في العباس بن عبد الله وأعلمه ما ذكره القوم · وعرفه بالشهود عليه وأباح له المدفع وضرب له أجلا بعد أجل · فلما انصرمت الآجال وعجز عن الدفع أعلمه أنه ينفذ الحكم عليه · فدخل العباس على الأمير الحكم ــ رحمه الله ــ وسأله أن يوصي القاضي بالتخلي عن النظر · وأن يكون الأمير الناظر بينه وبين خصمه · فدعى الأمير بفتى له يسمى « بزنت » وأوصاه الى مصعب بن عمران بأن يتخلى عن النظر · فلما أدى الفتى الوصية · قال له مصعب · ان القوم قد أثبتوا حقهم ولزمهم في ذلك عناء طويل · ونصب شديد · لبعد مكانهم · وقد ثبتت دعواهم · ولست أتخلى عن النظر حتى أحكم لهم فرجع الفتى وادى ما قال الى الأمير فجعل العباس يغريه · ويقول له قد أعلمت الأمير باستخفافه · وأنه يرى أن الحكم له لا للأمير · فصرف الأمير الحكم الفتى اليه يقول له · لابد أن تكف عن النظر بينهم وأن اكون أنا الناظر في ذلك · فلما عاد الفتى الى مصعب بذلك من عند الأميرة أمره بالقعود · ثم أخذ كتابا فعقد حكمه للقوم بالضيعة · ثم نفذه بالاشهاد فيه ثم قال للفتى · اذهب فاعلمه أني قد أنفذت مالزمني فحرف كلام القاضي · ونقل عنه الى الأمير أنه قال قد حكمت بحكم العدل · فينقضه الأمير ان قدر · فأطرف الأمير الحكم وجعل العباس يغريه · ويوقد غضبه وهم بمصعب · الى أن تداركه عصمة من الله · ثبتت بصيرته · فسرى عنه وقال للعباس ما أشقاه من لطمه قلم

القاضي ثم رجع الى ما كان فيه ولم يعرض للقاضي · ونفذ له حكمه » (١٤) وفي رواية أخرى أنه قال للعباس « أربع على ظلعك · فما أشقاه من جرى عليه قلم القاضي · فقف عند أمره فانه أشبه بنا وأولى بك » (١٥) واقام على حسن رايه في القاضي · ولم يتعرض له ·

حكي أن عليا · رضي الله تعالى عنه – دخل على شريح مع خصم له ذمي · فادعى علي عليه درعا سقطت منه · فقال للذمي ما تقول · فقال مالي بيدي فقال لعلي – رضي الله عنه – الك بينة على أنها سقطت منك · قال · نعم فأحضر كلا من الحسن · وقنبز مولاه · فقال قبلت شهادة قنبز · ورددت شهادة الحسن · فقال علي : ثكلتك أمك أما بلغت أن النبي صلى الله عليه وسلم – قال · الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة · فقال ·· اللهم نعم · غير أني لا آخذ بشهادة الولد لوالده · فقال لليهودي · خذها فليس عندي غيرهما · فقال اليهودي أشهد انها لك · وان دينكم هو الحق · قاضي المسلمين يحكم على أمير المسلمين ويرضى · أشهد أن لا اله الا الله · فدفع له عليا الدرع فرحا باسلامه) (١٦) فتلك حي حال القضاة يتمتع الواحد منهم فيها بالحرية التامة · والاستقلال في الأحكام · لا يهاب أمير المؤمنين لمكانته · ولا يخشاه لسلطانه · ولا يتحرج عن رد شهادة سيدي شباب أهل الجنة · لاقتناعه بعدم قبول شهادة الولد لوالده ·

وكان القاضي محمد بن بشير من عيون قضاة الأندلس · ومن وجوه أهل القضاء بهاء · كان شديد الشكيمة · ماضي العزيمة · مؤثرا للصدق · صلبا في الحق · لا هوادة عنده لأهل الحرم · ولا مداهنة في أحكام السلطان · ولا يعبأ على جميع أهل الخدمة · ولا على من لاذ بالخليفة من جميع الطبقات (قال أحمد بن خالد · كان أول من انفذه محمد بن بشير · من احكام التسجيل على الأمير الحكم في أرجاء القنطرة · اذ قام فيها بعض من قام فسمع من البينة فيها واشهد · ثم ابتاعها للأمير الحكم بعد ذلك ابتياعا صحيحا · فكان الأمير الحكم بعد ذلك يقول · رحم الله محمد بن بشير · فقد أحسن فيما فعل بنا · كان في أيدينا شيء مشتبه فصححه لنا · وصار حلالا فطاب لنا ملكه) (١٧) ودخل الأشعث بن قيس على شريح القاضي وهو في مجلس القضاء : (فقال مرحبا بشيخنا وسيدنا واجلسه معه · وبينما هو جالس عنده · اذ أقبل رجل يتظلم من الأشعث · فقال له شريح · قم فأجلس مجلس الخصم وكلم صاحبك · فقال · بل اكلمه من مجلسي · فقال له لا تقومن أو لآمرن من يقيمك · فقام امتثالا لأمر القضاء) (١٨) ·

الثاني فدخل سعيد الخير بالكتاب الى الحكم وأداه شهادته في الوثيقة وقد كان السدى بن الحكم قد ولى ابراهيم بن اسحاق القاري حليف بني زهرة القضاء بعد لهيعة ١٦٤هـ فاقام ستة أشهر ، ثم اختصم اليه رجلان في شيء فأمر بالكتاب على أحد الرجلين بانفاذ الحكم فشفع الرجع بابن أبي عون الى السرى أن يتوقف عن الحكم . فان اصطلحا والا حكم بينهما فجلس ابراهيم في منزله فركب اليه السرى . وسأله الرجوع فقال . لا أعود الى ذلك المجلس أبدا ، ليس في الحكم شفاعة (١٩) .

هكذا كان القضاة . وهذا شأنهم ـ كتاب الله أمامهم ـ وهدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ طريقهم . وكيف يخضعون لحاكم . أو سلطان يعوقهم عن امضاء حكم الله تعالى . لم يكن ذلك دأب القضاة (حدث أن سعيد الخير بن الأمير عبد الرحمن الداخل كانت له خصومة أمام القاضي بن بشير سنة ١٩٨هـ فوكل وكيلا يخاصم عنه أمام القاضي وكان بيده وثيقة فيها شهادة شهود ماتوا ولم يبق حيا من الشهود الا الأمير الحكم وشاهد آخر . فشهد ذلك الشاهد لسعيد الخير وضرب القاضي آجلا لسماع شهادة الشاهد الثاني فدخل سعيد الخير بالكتاب الى الحكم وأداه شهادته في الوثيقة وقد كان كتبها قبل الامارة في حياة أبيه وعرفه مكان حاجته الى أدائها . وكان الحكم بارا بعمه سعيد الخير بن الأمير . فقال له ياعم لسنا من أهل الشهادات وقد التبسنا من هذه الدنيا بحال تجهله . ونخشى أن توقفنا مع القاضي موقف مخزاه كنا نفديه بملكنا . فصرفي خصامك حيث سيرك الحق اليه وعلينا خلف ما انتقص فأبى عليه وقال سبحان الله وما عسى أن يقول قاضيك في شهادتك وأنت وليه ومازال به ملحا في طلبه حتى أرسل الحكم الى فقيهين من فقهاء وقته وخط شهادته بيده في قرطاس وختم عليها بخاتمه ودفعها الى الفقيهين . وقال لهما هذي شهادتي بخطي تحت ختمي فأدياها الى القاضي فأتياه بها في مجلسه وقت قعوده للسماع من الشهود فأدياها اليه . فقال لهما قد سمعت منكما فقوما راشدين في حفظ الله تعالى . وجاء وكيل سعيد الخير ووقف مدلا . وقال له أيها القاضي قد شهد عندك الأمير أصلحك الله تعالى فما تقول فأخذ كتاب الشهادة فنظر فيه ثم قال للوكيل هذه شهادة لاتعمل عندي فجئني بشاهد عدل فدهش الوكيل ومضى الى سعيد الخير فأعلمه فركب من فوره الى الحكم وقال له لقد ذهب سلطاننا وأبطل بهاؤنا يجترأ هذا القاضي على رد شهادتك وأخذ يوغر صدر الأمير على قاضيه فقال له الأمير وهل شككت أنا في هذا يا عم القاضي رجل صالح والله لا تأخذه في الله لومة لائم . فعل ما يجب عليه ويلزمه وسد دونه بابا كان يصعب عليه الدخول فيه فأحسن الله جزاءه . فغضب سعيد الخير وقال هذا حسبي منك فقال نعم . قد قضيت

الذي كان علي لك ولست والله أعارض القاضي فيما احتاط لنفسه ولا اخوار المسلمين في قبض يد مثله) . ولما عوتب ابن بشير فيما أتاه من ذلك قال لمن عاتبه يا عاجزا ما تعلم أنه لابد من الأعذار في الشهادات فمن كان يجترىء على الدفع في شهادة الأمير لو قبلتها ولو لم أعذر لبخست المشهود عليه رحمه الله زمانا هذا قاضيه وذاك أميره قد أخلص كل منهما لدينه وأمته تمسك القاضي بالحق فألهم الله الأمير احترامه ومحبته (٢٠) .

وكان والي المدينة قد غصب قوما مالا لهم بملل (٢١) فكان أول قضاء قضى به سعيد بن سليمان على والي المدينة . فأخرج من يديه ذلك المال . وأعطاه لأهله . فتصدق به ابن لرفاعة بن رافع العجلاني على فقراء العجلان وانتعش منه خلق كثير من فقرائهم بالمدينة . فقال محمد بن مصعب يا سعيد متى يدركن المضلون فضل هذه القضية . فأراد الوالي عزله . فما استطاع وعزل الوالي من أجله (٢٢) وروي أيضا خير بن نعيم في ولايته الثانية على قضاء مصر سنة ١٣٣هـ أن رجلا من الجند . قذف رجلا . فخاصمه الى خير . وثبت عليه شاهدا واحدا . وأمر بحبس الجندي الى أن يثبت الرجل شاهدا آخر . فأرسل أبو عون . فأخرج الجندي من الحبس . فاعتزل خير وجلس في بيته وترك الحكم . فأرسل اليه أبو عون . فقال : لا حتى ترد الجندي الى مكانه . فلم يرد . وتم على عزمه (٢٣) ويحدثنا الخشني (٢٤) أن القاضي محمد بن بشير كان قد شهد عنده رجل من اخوانه من أهل الخاصة به والتكرار عليه . يكنى بأبي اليسع فرد شهادته فبلغ الرجل ما كان منه فتصدى له وهو رائح الى الجامع ماشيا فقال له : على خاصتي بك . ومحبتي لك . ترد شهادتي عندك ؟ فقال له محمد بن بشير . الورع يا أبا اليسع . الورع يا أبا اليسع . مرتين لم يزده على ذلك .

فمن هذه الروايات وغيرها يتبين لنا ما كان عليه القضاء . وما اتصف به القضاة من الهيبة والنفوذ وعلو المكانة . فان وظيفة القاضي من أسمى الوظائف العامة . تحاط بالهيبة . وتقرن بالاجلال .

وكان لدى القضاة في صدر الاسلام الشيء الكثير من التسامح . والمرونة التي لا تخرج به عن قواعد الاسلام فقد كان خير بن نعيم الذي تولى قضاء مصر سنة ١٢٠هـ ـ ١٣٣هـ يسمع كلام القبط بلغتهم . ويخاطبهم بها . وكان يسمع شهادة الشهود منهم بلغتهم أيضا . ويحكم بشهاداتهم (٢٥) وقد وصف استانلي لينول في كتابه تاريخ مصر في العصور الوسطى قاضي مصر في عهد الأمويين وصدر الدولة العباسية وترجم عبارته الأستاذ الدكتور

حسن ابراهيم حسن (انه كان على خبرة اكتسبها من اشتغاله بالفقه الاسلامي وقد اشتهر لدى العامة بالاستقامة وحسن الأخلاق • وكان لمركزه أهمية ولشخصه نفوذ كبير • لذلك لم يكن يجرى عليه ما يجرى على غيره من العمال بل ظل القاضي في كثير من الأحيان يشغل منصبه في عهد عدة ولاة • ولم يكن أسرع الى القاضي من تقديم استقالته اذا تدخل في أحكامه الشرعية متدخل • وبلغ من محبة الناس للقضاة • ان أصبح الولاة يفكرون طويلا اذا حدثتهم أنفسهم بالاقدام على عزلهم حتى لا يتعرضوا لكراهية الجمهور • كما لم يعد للوالي في العصر العباسي سلطة عزل القضاة • بل صارت المراسيم تصدر بتعيينهم من بغداد عادة وأصبحت مسالة تحديد رواتبهم ودفعها موكولة الى الخليفة نفسه) (٢٦) هذا ولم تقل مكانة القاضي في زمن بني العباس عما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين وعهد بني أمية بل بقيت كرامتهم موفورة ومنزلتهم محفوظة •

ويحكى أن خلافا وقع بين أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وزوجته أم المهدي بنت يزيد الحميرية • وكان الغوث بن سليمان على قضاء مصر • فاستقدمه الخليفة • وقال له ياغوث ان صاحبتكم الحميرية خاصمتني اليك في شروطها • قلت • أيرضى أمير المؤمنين أن يحكمني عليه • قال • نعم • فقلت ان الأحكام لها شروط • أفيحتملها أمير المؤمنين • قال نعم • قال يأمرها أمير المؤمنين أن توكل وكيلا وتشهد على وكالته خادمين حرين • يعدلهما أمير المؤمنين على نفسه • فقعل • فوكلت خادما • وبعثت معه كتاب صداقها • وشهد الخادمان على وكالتها • فقلت • قد تمت الوكالة فان راي امير المؤمنين أن يساوي الخصم في مجلسه • قال • فانحط عن فرشه وجلس مع الخصم ودفع الى الوكيل كتاب الصداق فقرأته عليه • فقلت • يقر أمير المؤمنين بما فيه • قال • نعم قلت ارى في الكتاب شروطا مؤكدة بها تم النكاح بينكما • أرأيت يا أمير المؤمنين لو خطبت اليهم ولم تشترط لهم هذا الشرط كانوا يزوجونك • قال • لا • قال • قلت فبهذا الشرط تم النكاح وانت أحق من وفى لها بشرطها (٢٧) •

فهذه لمحة بسيطة مما كان عليه القضاة تدل على قوة ايمانهم وعلو انفسهم وعدم مبالاتهم بوصف من يتخاصم اليهم وعدم حرصهم على تلك الوظيفة التي لم يتولوها لنيل جائزة أو طمعا في مادة فانية •

ولم يكن الخلفاء او الأمراء بأقل منهم عدلا فقد ضربوا بسهم وافر في الحرص على العدالة • والمحافظة على المساواة بين الناس حتى كانوا مثالا

لقضاتهم فنهجوا نهجهم وساروا على طريقتهم والتاريخ ملىء بأخبارهم (٢٨) · ومن ذلك ما وقع للمأمون في قضية رفعتها اليه امرأة على ابنة العباس · فلم يمنعه حبه لابنه · ولم تعدل الشفقة عليه عن أن يسوى بينه وبين امرأة رثة الثياب · رقيقة الحال · وقضى لها بما طلبت · فقد تقدمت اليه ومازالت حتى وقفت بين يديه فقالت السلام عليك أيها الأمير فنظر اليها يحيى بن اكثم قاضيه وقال ماحاجتك فأنشد :

يا خير منتصف يهدي له الرشد   ويا اماما به قد أشرق البلد
تشكو اليك عميد القوم أرملة   عدا عليها فلم يترك لها سيد
وابتز مني ضياعي بعد منعتها   ظلما وفرق مني الأهل والولد

فأطرق المأمون مليا ثم رفع رأسه وقال :

في دون ماقلت زال الصبر والجلد   عني وأقرع مني القلب والكبد
هذا أوان صلاة العصر فانصرفي   وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد
فالمجلس السبت أن يقضى الجلوس لنا   فيه والا فالمجلس الأحد

فلما كان يوم الأحد تقدمت اليه وقالت السلام عليك أيها الأمير فقال وعليك السلام · أين الخصم فقلت الواقف على راسك يا أمير المؤمنين وأشارت الى العباس ابنه فقال يا أحمد خذ بيده وأجلسه معها مجلس الخصوم · فجعل كلامها يعلو كلام العباس فقال لها أحمد يا امة الله · انك بين يدي أمير المؤمنين · وأنك تكلمين الأمير فاخفضي من صوتك · فقال المأمون · دعها فان الحق أنطقها وأخرسه · ثم قضى لها برد ضيعتها وأمر لها بنفقة (٣٩) ·

ولم يقتصر احترام القضاة على الخلفاء والولاة في الشرق بل سرى صداه الى ملوك الأندلس وأمرائها في الغرب فقد روى أن المنذر بن سعيد قاضي قرطبة ٣٣٩هـ ، كان يواجه الناصر بما لا يمكن أن يحتمله من سواه فمن ذلك أنه دخل على الناصر مرة وهو في قبة جعل قرمدها من ذهب وفضة · واحتفل احتفالا ظن أنه لم يصل اليه أحد من الملوك فقال ابن سعيد خطيبا في حفل حافل وتلا قوله تعالى « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون » (٣٠) وذكر كلاما وجم منه السلطان · ولم يسعه الا قبوله واحتماله من منذر لعظيم قدره في علمه ودينه (٣١) ·

تلك كانت نفوس كبيرة فحافظت على كرامتها فاضطر الناس الى احترامهم · غضب الشيخ عز الدين بن عبد السلام على سلطان دمشق السلطان صالح بسبب اعطائه مدينة صيدا وقلعة الثقيف للافرنج فترك الدعاء له في الخطبة · وجاء الى مصر فأرسل السلطان الى الشيخ رسولا يلاطفه في الكلام ويطلب عودته · فقال الرسول للشيخ لا نريد منك شيئا الا أن تنكسر للسلطان وتقبل يده فقال له الشيخ يامسكين ما أرضاه يقبل يدي فضلا عن أن أقبل يده (٣٢) ·

وقد ذكر الفقهاء الشيء الكثير من آداب القاضي وما ينبغي ان يتصف به وكتب الفقه حافلة بالنصح والارشاد وبيان فضل القاضي والقضاء (٣٣) وقد دلنا على ذلك مارواه التاريخ لنا وقد ذكرنا بعضا منه · وقد رأينا كيف تمسك القضاة بالحق والفضيلة وساروا عليها · وتقيدوا بآداب الشرع · وساروا على مارسمه لهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلفاؤه من بعده · وحفظوا للناس ما اعتقدوه فيهم · حتى وصلوا منزلة لا تدرك · ودرجة لا تطاول · سووا بين الحقير والأمير · والضعيف والقوي · لم تأخذهم رهبة · تجردت نفوسهم عن الأغراض · وتنزهت عن المآرب ·

فهلا يتردد بعد هذا انسان في أن القضاء في الاسلام ، خير قضاء عرفه العالم · وأن قضاته أفضل قضاة عرفهم التاريخ ـ علما وفضلا ونزاهة وذكاء واستقلالا ومتانة في الحق · وهذه هي المفاخر الصحيحة التي سجلها التاريخ على صفحاته لهؤلاء القضاة · فهلا استفاد الخلف · ومضى الأبناء على سنن الآباء · وأضافوا الى تليد المجد طريقه حتى يرجعوا لأنفسهم سالف مجدهم ويستروا عزة نفوسهم · وعلو منزلتهم ·

الهوامش

١ ـ أخبار القضاة لوكيع جـ١/١١٢ (استادى على فلان استعدى عليه اي استغاث واستنصر) ·
٢ ـ قضاة قرطبة للخشني /٢٣/٢٤ ـ تاريخ قضاة الأندلس للمالقي /٤٤ ·
٣ ـ آل عمران ١٠٤ ·
٤ ـ تبصرة الحكام لابن فرحون جـ١/١٣ ـ الزيلعي جـ٤/١٧٦ ·
٥ ـ المغني والشرح الكبير جـ١١/٣٧٥ ·
٦ ـ صحيح الترمذي جـ٦ ص ٦٣ ·
٧ ـ تاريخ قضاة الأندلس للمالقي /٢٤ ـ تاريخ الاسلام السياسي جـ٢/٢٨٧ ـ مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر جـ ٢/١٥٥ ـ تاريخ القضاء في الاسلام لعرنوس ٧٢ ـ ابن عابدين جـ ٥/٣٦٨ ـ فتح القدير جـ ٥/٤٦٠ ـ

= أخبار القضاة لوكيع جـ ١ ص ٢٧/٢٦ ·
٨ ـ أخبار القضاة لوكيع جـ١/٢٦ ·
٩ ـ مجمع الأنهر جـ٢/١٥٥ ـ ابن عابدين جـ٥/٣٦٨ ـ فتح القدير جـ٥/٤٦٠ ـ تاريخ الاسلام السياسي جـ٢/٢٨٧ ـ تاريخ القضاء في الاسلام لعرنوس ٧٢ ·
١٠ ـ القضاء في الاسلام لعطية مشرفة /١٥٨ ـ عرنوس ٧٤ ·
١١ ـ قضاة قرطبة للخشني /٣/٤/٥/٦/٧/٨ ·
١٢ ـ قضاة قرطبة للخشني /٢٥ ·
١٣ ـ القضاء في الاسلام لمشرفة / ١٥٨ ·
١٤ ـ قضاة قرطبه للخشني/٢٥/٢٦ ·
١٥ ـ تاريخ قضاة الأندلس للمالقي /٤٦ وقول الأمير أربع على ظلعك معناه انك ضعيف فانته عما لا تطيقه قال صاحب الأفعال · أربعت على الشيء عطفت عليه ·
١٦ ـ شرح الأزهار جـ٤ ص ٣١٤ ·
١٧ ـ قضاة قرطبة للخشني/٢٩ ·
١٨ ـ تاريخ القضاء في الاسلام لعرنوس/٢٢ ·
١٩ ـ الولاة والقضاة للكندى جـ٥/٤٢٧ ـ رفع الاصر عن قضاة مصر ـ القسم الأول ص ٢٢ ·
٢٠ ـ تاريخ قضاة الأندلس ص ٤٨ ومابعدها للمالقي ، تاريخ القضاء في الاسلام ص ٢١ ومابعدها لعرنوس ·
٢١ ـ ملل · مكان بينه وبين المدينة ليلتان · قال ياقوت · وهو مبتدأ ملك الحسين ابن علي بن أبي طالب · لوكيع جـ١/١٦٧ ·
٢٢ ـ أخبار القضاة لوكيع جـ١/١٦٧/١٦٨ ·
٢٣ ـ الولاة والقضاة للكندي جـ٣/٣٥٦ ·
٢٤ ـ قضاة قرطبة للخشني/٣٢ ·
٢٥ ـ القضاء في الاسلام لمشرفة/١٦١ ·
٢٦ ـ تاريخ الاسلام السياسي جـ٢/٢٩١/٢٩٢ ـ القضاء في الاسلام لمشرفة/١٦١ ·
٢٧ ـ أخبار قضاة مصر للكندي جـ٣ ص ٣٧٥/٣٧٦ · القضاء في الاسلام لمشرفة ١٦٢/١٦٣ ·
٢٨ ـ تاريخ قضاة الأندلس للمالقي /٥١/٥٣ ـ الادارة الاسلامية في عز العرب ص ١٠٨ ·
٢٩ ـ تاريخ القضاء محمد زكي يوسف ص ٩٢ ·
٣٠ ـ الزخرف ٣٣ ·
٣١ ـ قضاة قرطبة للخشني ١٢٠ ـ عرنوس ١٢٣ ـ المالقي ٧١/٧٢ ·
٣٢ ـ تاريخ القضاء عرنوس ص ١٢٤ ·
٣٣ ـ فتح القدير جـ٥/٤٥٣ ومابعدها ـ دسوقي علي الشرح الكبير جـ٤/١٢٩ ومابعدها ـ المهذب جـ٢/٣٠٧/٣٠٨ ومابعدها ـ المغني والشرح الكبير جـ١١/٤٢٩ ـ تبصرة الحكام جـ١/١٣ ـ قضاة قرطبة للخشني/١٥٢ ·